مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٨

دعوة بولس

للقديس يوحنا ذهبى الفم

ترجمة: د. سعيد حكيم

دعوة بولس

للقديس يوحنَّا الذهبي الفم

ترجمة د. سعيد حكيم

دكتوراه في العلوم اللاهوتيّة - جامعة أرسطو - اليونان

باحث بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

S.hakim@alexandriaschool.org

الاستجابة لكلمة الله[1]:

عندما قُرأ هذا الجزء: «أما شاول فكان لم يزل ينفث تهددا وقتلاً» (أع٩: ١)، انتظر الجميع أن يكون الحديث مِنْ بداية الأصحاح التاسع لسفر الأعمال، لأن دعوة بولس هى دليل على القيامة.

١- هل هذه يا تُرى أمور مُحتملة؟ هل يمكن الصبر عليها؟ فكل يوم يصل عدد الذين يحضرون اجتماعنا إلى أقل عدد. فبينما تمتلئ المدينة بالبشر، نجد الكنيسة فارغة منهم. السوق، والمسارح، والطرقات ممتلئة، أما بيت الله فهو فارغ، أو مِنْ الأفضل - إن كنا نريد أن نقول الحقيقة - إن المدينة هى الفارغة، والكنيسة هى الممتلئة. لأنه لا ينبغي أن تدعو هؤلاء الذين يترددون على السوق بشرًا، أما البشر فهم أنتم الذين داخل الكنيسة، وليس هؤلاء الذين يتسمون باللامبالاة، بل أنتم يا مَنْ تجاهدون، وليس هؤلاء الذين يهتمون بالأمور العالمية، لكن أنتم الذين تُفضلون عليها الأمور الروحية. لأن الإنسان ليس هو مَنْ له جسد وصوت إنسان، بل الذي له نفس وإرادة الإنسان. وليس مِنْ شيء يدل على وجود النفس الإنسانية، ألاّ أن يحب المرء كلام الله. كما أنه لا يوجد شيء يُمثِّل ملمحًا ودليلاً على نفس حيوانية وشاذة بهذا القدر، إلاّ احتقار المرء لكلام الله.

هل تريد أن تعرف إن أولئك الذين يحتقرون سماع كلام الله، قد فقدوا الكثير باحتقارهم هذا، خاصة الصفة التي تميِّز الإنسان، وسقطوا مِنْ حالتهم النبيلة؟ إنني لا أنقل لكم كلامي الشخصي، لكني سأذكر لكم كلمة

[1] العناوين الجانبية مِنْ وضع المترجم.

نبوية، والتي تُدعم رأي أو تؤمِّن على رأي، لكي تروا أن كل مَنْ لا يُحب الكلام الروحي لا يستطيع أن يكون بشرًا، ولكي تدركوا أن مدينتنا خالية مِنْ البشر. إذن فإشعياء، صاحب الصوت العظيم، ذاك الذي رأى رؤية عجيبة، الذي رأى السيرافيم وهو لازال في هذه الحياة، والذي سمع ذلك النغم السري، بعدما دخل إلى المدينة الأم، كثيرة السكان؛ أي أورشليم، وبعد أن وقف في منتصف السوق، وعندما أحاط به كل الشعب، أراد أن يُبرهن على أن كل مَنْ لا يسمع كلام الأنبياء ليس إنسانًا، صرخ قائلاً: «لماذا جئت وليس إنسان ناديت وليس مُجيب» (إش٥٠: ٢). وقد قال هذا، لا بسبب عدم حضور أحد أمامه، لكن لأجل لامبالاة المستمعين إليه، فبعدما قال: «جئت وليس إنسان»، أضاف «ناديت وليس مُجيب».

ومع وجود حاضرين، لكنهم لا يُعتبروا حاضرين، لأنهم لم يسمعوا للنبي. لهذا ولأنه أتَى، ولم يوجد إنسان، دعا ولا مِنْ مُجيب ليطيع، حوّل كلمته تجاه عناصر الطبيعة، قائلاً: «اسمعي أيتها السموات وأصغي أيتها الأرض» (إش١: ٢)، لأنني أُرسلتَ إلى بشر، إلى بشر عاقلين. لكن، عندما لا يستخدمون العقل والإحساس، فإنني أتوجَّه إلى العناصر التي ليس لها إحساسًا، لكي يدينوا أولئك الذين - على الرغم مِنْ أنهم يمتلكون الإحساس - لا يستخدمون هذه الكرامة. هكذا قال نبي آخر وهو إرميا، لأنه بعدما وقف بين جمعٍ مِنْ اليهود في نفس المدينة، صرخ قائلاً: «مَنْ أُكلِّمهم وأنذرهم فيسمعوا؟» (إر٦: ١٠)، كما لو كان لا يوجد هناك أحد حاضرًا. ماذا تقول؟ أبرغم وجود هذا الجمع الكبير، أنت تسأل مع مَنْ تتكلَّم؟ يقول: نعم. لأنه يوجد جمع مِنْ الأجساد، وليس جمع مِنْ البشر، يوجد جمع مِنْ الأجساد، لكن ليس لهم أذان. ولهذا تحديدًا أضاف: «ها إن آذانهم غلفاء فلا يقدرون أن يصغوا». أرأيت أن كل هؤلاء ليسوا بشرًا، لأنهم لا يسمعون؟ إشعياء يقول: «جئت وليس إنسان. ناديت وليس مُجيب»، وإرميا يقول: «مَنْ أكلّمهم وانذرهم فيسمعوا. ها إن أذانهم غلفاء فلا يقدروا أن يصغوا».

هجرة البيت الأبوي:

إذن، طالما أن الحاضرين لم ينصتوا باهتمام إلى كلامهم، قال الأنبياء إنهم ليسوا بشرًا، فماذا نقول نحن لهؤلاء الذين ليس فقط لم يسمعوا، بل لم يحتملوا أن يعبروا مِنْ هذا الباب المقدس (الذي للكنيسة)، ماذا نقول لهؤلاء الذين ينخدعون خارج هذا القطيع المقدس، ولَمَنْ هم بعيدين عن هذا البيت الذي للكنيسة الأم، في مُفترق الطرق، وفي الطرق الصغيرة، كأولاد عشوائيين ولا مبالين؟ لأنه بالحقيقة قد هجر هؤلاء بيتهم الأبوي، وتجوّلوا في الخارج وقضوا يومهم في ألعاب طفولية. ولهذا تحديدًا فإن هؤلاء الأولاد فقدوا مرات عديدة الحرية وفقدوا حياتهم. لأنه بعدما سقطوا، بسبب عدم مبالاتهم، في أيدي الخاطفين واللصوص أحيان كثيرة، نجدهم يدفعون الثمن بالموت؛ أي عندما يُمْسك هؤلاء ويُنزَع عنهم الحلي الذهبية، أو عندما يُغرقوا في مياه الأنهار، وحين يُعاملوا معاملة إنسانية يُقتَادوا إلى بلد غريب وهناك يُتركوا أحرارًا. هذا ما يُعانيه هؤلاء (الذين خارج الكنيسة).

لأنه عندما يبتعدون عن البيت الأبوي ولا يُقيمون فيه، يسقطوا فريسة في أفواه الهراطقة وألسنة أعداء الحقيقة. ثم بعد ذلك، كما لو كان قد قَبَضَ عليهم خاطفون، ينزعوا عنهم التحفة الذهبية التي للإيمان، ويغرقونهم على الفور دون أن يلقونهم في الأنهار، بل يغطسونهم في عقائدهم المنحرفة والقذرة.

دعوة للمشاركة في المائدة الروحية:

٢. ستكون مهمتكم أن تهتموا بخلاص هؤلاء الأخوة، وأن تُحضروهم بالقرب منا، وحتى لو قاوموا، أو جادلوا، أو صرخوا، أو بكوا، فهذه المقاومة واللامبالاة هي مِنْ سمات الفكر الطفولي. لكن، أصْلِحوا أنتم نفوسهم التي لم تكتمل بعد. في أيديكم أن تُقنعوهم أن يصيروا بشرًا. لأنه كما إننا لا نعتبر مَنْ يرفض الطعام الآدمي ويأكل أشواكًا وأعشابًا مع الحيوانات إنسانا، هكذا أيضًا لن نطلق كلمة إنسان على مَنْ يكره الطعام الحقيقي واللائق بالنفس الإنسانية - الذي ينتج مِنْ الكلمات الإلهية - ولا على مَنْ يجلس في ندوات

ومؤتمرات عالمية، والتي دائمًا ما تكون مملؤة بذاءة وكلامًا خارجًا عن اللياقة. لأن الإنسان بالنسبة لنا ليس هو الذي يتغذَّى فقط على الخبز، بل هو مَنْ يتذوق الكلام الإلهي والروحي، قبل أن يتذوق طعامه الجسدي. ومِنْ حيث إن هذا هو مَنْ يُعتبر إنسانًا، فاسمع ما يقوله المسيح له المجد: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج مِنْ فم الله» (مت٤: ٤). وبناءً على ذلك، فإن طعامنا هو طعام مزدوج. أحدهما هو الأدنى (أي المادي)، والآخر هو الأفضل (أي الروحي). وهذا الطعام الروحي هو ما ينبغي أن يبحث عنه الإنسان، ويسعى إليه بشكل خاص، حتى يُغذي نفسه، ولا يتركها تنهار جوعًا.

إذن، في أيديكم أن تملؤا مدينتنا بالناس. لأن هذه المدينة الكبيرة والكثيرة السكان تفتقر للبشر، وإن كنتم أبرارًا، فيمكنكم أن تقدموا هذه العطية للوطن وأن تجذبوا أخوتكم، لو أنكم نقلتم لهم ما يحدث هنا في الكنيسة. لأننا نستطيع أن نُقنع شخصًا بأن يتمتع بمائدة، ليس فقط عندما نشيد بالمائدة، ولكن حين يكون لدينا ما نُقدمه مِنْ طعام على هذه المائدة للغائبين. هذا ما يجب أن تفعلوه أنتم الآن، وفي كل الأحوال سيحدث أمر مِنْ اثنين: إما أن تُقنعونهم أن يعودوا إلينا، أو سيظلوا يتغذّون بكلامكم طالما أنهم يبقون في نفس الصراع بين الرفض والقبول، إلاّ أنهم ربما سيعودون على أية حال. لأنه لن يعودوا لو أنهم فضَّلوا أن يتغذوا على أعشاب مِنْ جهة، بينما يستطيعون مِنْ جهة أخرى أن يتمتعوا بوفرة مِنْ هذه المائدة الأبوية. لكن، مِنْ حيث إنه مِنْ المؤكد أنكم تفعلون هذا، أو فعلتموه، أو ستفعلونه، فهذا ما أتوقعه، وأؤمن به جدًا. لأنني أنا نفسي لم أتوقف عن أن أنصحكم بهذا، وأنتم أيضًا لديكم وفرة مِنْ المعرفة وتستطيعون أن تنصحوا الآخرين.

إنها ساعة الآن أن أُقدِّم لكم مائدتي، ورغم أنها بسيطة وفقيرة، ومملؤة بأنواع فقيرة جدًا، إلاَّ أنها تحتوي على طعام رائع، وهو رغبة المستمعين إلى سماعي. لأن المائدة الأكثر بهجة، لا تتيحها فقط الأطعمة الفخمة، بل تعدها أيضًا شهيّة المدعوِّين. هكذا نجد أن هناك مائدة غنية بالأطعمة، تبدو بسيطة، عندما تخلو مِنْ جائعين يشاركون فيها، والمائدة البسيطة تبدو غنية، عندما

تستقبل المدعوين الذين يطلبون الطعام. وهذا ما يعترف به أيضًا شخص آخر (سليمان الحكيم)، أي أن ما يصف الموائد الغنية، ليس هو طبيعة الطعام، بل رغبة المدعوين، فيقول: «النفس الشبعانة تدوس العسل، للنفس الجائعة كل مرٍّ حلو» (أم٢٧: ٧). لا لأن طبيعة الطعام الموضوع تتغير، بل لأن رغبة المدعوين تُغيِّر مذاق الطعام. ولكن، إن كان مذاق الطعام المُرّ يبدو حلو بسبب شهيّة المدعوين، فبالأكثر جدًا، الموائد الفقيرة تبدو غنية. لهذا فنحن أيضًا، الذين نحيا في فقر مُدقع، فلنحاكي أرباب البيوت الذين يتسمون بالكرم، الذين يقدمون وجبات، إننا في كل اجتماع ندعوكم إلى مائدتنا. ونحن نصنع هذا، لا لأننا نثق بأننا أثرياء، ولكن لأننا نترجى مسامعكم.

الصيد الروحي:

٣. إذن كان متوقعًا أن نهتم ببداية الكتاب (سفر أعمال الرسل)، وأن نتكلم عن: «الكلام الأول أنشأته يا ثاؤفيلس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به» (أع١: ١). لكن، بولس لا يتركني أتّبع هذا الترتيب، لأنه يجذب حديثي إليه وإلى كل ما فعله. كم كنت أشتهي أن ترونه وهو يدخل دمشق مُقيدًا، لا بسلسلة حديدية، ولكن بصوت الرب. أشتهي أن ترون هذه السمكة الكبيرة وهى تُصطاد، تلك التي جعلت البحر يضطرب، والتي أثارت أمواجًا هائجة ضد الكنيسة. أشتهي أن ترونه يُصطاد، لا بصنارة، لكن بكلمة الرب. لأنه مثل الصياد الذي يجلس على صخرة مرتفعة ويمسك بالصنارة ويلقيها مِنْ علو في البحر، هكذا بالضبط صنع إلهنا، الذي أظهر لنا الصيد الروحي، كما لو كان يجلس على صخرة السموات المرتفعة، بعدما ترك مِنْ علو مثل هذه الصنارة، أي صوته، وبعدما قال: «شاول شاول لماذا تضطهدني» (أع٩: ٤). هكذا اصطاد هذه السمكة الكبيرة.

وكما حدث مع تلك السمكة التي اصطادها بطرس، بعدما تلقى أمرًا مِنْ الرب، هكذا حدث مع بولس. لأن هذه السمكة وَجد في فمها عملة، لكنها عملة مُزيفة، لأنه كانت لدية غيرة، ولكنها لم تكن مصحوبة بمعرفة مستقيمة. ولهذا بعدما منحه الله المعرفة، جعل هذه العملة حقيقية. وما يحدث في

الأسماك التي تُصطاد، هكذا حدث له (لبولس). فكما تُصاب الأسماك بعد صيدها بالعمى بمجرد سحبها مِنْ البحر إلى الخارج، هكذا أُصيبَ بولس على الفور بالعمى، بمجرد أن بلع الصنارة. لكن فقدان بصره هذا جعله يتطلع نحو خدمة كل المسكونة. إنني أتمنى أن تنظروا إلى هذا كله. لأنه بالحقيقة لو أن البربر أحاطوا بنا، وأحدث أعداؤنا خسائر كثيرة على جبهة القتال، ثم بعد ذلك جاء قائد البربر الذي قاد آلات حربية عديدة ضدنا، وتسبب في حالة ارتباك في صفوف جيوشنا، وخلق حالة مِنْ الاضطراب والانزعاج، وهدَّد بأن يحرق مدينتنا ويُشعل فيها النار، وبأن يُخضعها للعبودية، هذا القائد لو قُبض عليه فجأة وأسره ملكنا، وأُقتيد إلى المدينة، فإننا جميعًا مع النساء والأولاد، سنركض لكي نراه.

ولأنه، الآن، أيضًا توجد حرب مِنْ نوع خاص، فاليهود يُثيرون قلقًا واضطرابًا ويوجهون آلات كثيرة ضد الكنيسة وسلامها، وكان بولس قائد الأعداء الذي فعل وتكلَّم أكثر مِنْ الجميع، وفي كل شيء كان يُثير قلقًا واضطرابًا، هذا (أي بولس) قد قيّده ربنا يسوع المسيح ملكنا، قيّده واحضره أسيرًا، هذا الذي أثار اضطراب في كل شيء، ألاَ نخرج جميعًا لكي نستعرض هذا الموضوع، حتى نرى بولس وهم يقودونه أسيرًا؟ لأن الملائكة أيضًا في تلك اللحظة التي فيها رأوه مِنْ السماء وهو مُقيدًا، ويحضرونه إلى المدينة قد فرحوا، لا لأنهم رأوه مُقيدًا فقط، بل لأنهم فكروا كم مِنْ الناس سيحلهم مِنْ قيودهم. ولا لأنهم رأوه وهم يقودونه مِنْ يده، بل لأنهم فكروا كم مِنْ الناس سيقودهم مِنْ الأرض إلى السماء. ولهذا فرحوا، لا لأنهم رأوه أعمى، لكن لأنهم قدّروا كم مِنْ الناس سينتشلهم مِنْ الظلام. هكذا قال له الله اذهب إلى الأمم، وبعدما تُخرجهم مِنْ الظلام، ستنقلهم إلى ملكوت محبة المسيح.

محبة بولس:

ولذلك سأترك افتتاحية الكتاب (أي أعمال الرسل)، وآتي مباشرة إلى منتصف (الأحداث). لأن محبة القديس بولس تُلزمنا أن نصنع هذه القفزة. بولس والشوق لبولس. سامحوني أو الأفضل ألا تسامحوني، بل أن تغاروا مِنْ محبتي له.

لأن ذاك الذي لديه محبة مدهشة، يطلب وبشكل مُبرر المسامحة. بل أن مَنْ لديه مثل هذه المحبة، ليته يتزيَّن بالاشتياق، وليجعل الكثيرين شركاءً له في ذلك، وليجعل الآلاف عاملين معه. لو حدث إننا سلكنا بشكل قانوني وتقدّمنا في قراءة السفر بترتيب، أي نقول الأمور مِنْ البداية ثم نصل إلى المنتصف، فلن نصل مباشرة إلى المنتصف، بعدما نترك البداية. لكن نظرًا لأن قانون الآباء يُوصي بأن ننتهي مِنْ قراءة سفر الأعمال بعد نهاية الاحتفال بيوم الخمسين، خَشيتُ خاصة وإننا سننشغل بدراسة الأجزاء الأولى لهذا السفر، أن يفوتنا تتابع القصة (الأحداث)، ولهذا أسرعت في سرد بداية الرواية، وبدايتي كانت نهاية افتتاحية القصة (قصة دعوة بولس). لقد نصحتكم أن تظلوا في أماكنكم وأن تقفوا في بداية الطريق. إذن بعد أن كنت خائفًا في بداية السفر، سأتقدم بجرأة فيما بعد لأتناول جميع الأمور الباقية، حتى وإن كان الاحتفال قد انتهى. لأنه لن يتهمنا أحد بأننا نتكلم في وقت غير مناسب، طالما أن الاحتياج أو الضرورة نفسها، تُسقط عنا الإتهام بالكلام في غير مناسبته، حتى نستطيع أن نكمل حديثنا. ولهذا ركضت متجاوزًا البداية إلى المنتصف. مِنْ المؤكد أنه لم يكن ممكنًا أن نصل إلى بولس ونحن نسير خطوة خطوة.

٤. لقد شاركنا في الاحتفال حتى انتهى النصف الأول منه ثم بدأنا نشرح لكم المكتوب فقط، فلو إننا شرعنا في عرض هذا الكتاب مُبتدئين مِنْ الافتتاحية، حتى نصل إلى الحديث عن بولس، سيستغرق هذا وقتًا طويلاً، ولكن مِنْ الأفضل أن أُشير إلى الافتتاحية: «الكلام الأول الذي أنشأته يا ثاؤفيلس عن جميع». كم عدد الموضوعات التي تعتقدون أنها أُنشأت هنا؟ أولاً: لأي سبب يُذكِّره بكتابه الأول؟ ثانيًا: لماذا يدعوه «كلامًا» وليس إنجيلاً، وان كان بولس يدعو هذا إنجيلاً، قائلاً: «الذي مدحُهُ في الإنجيل في جميع الكنائس» (٢كو٨: ١٨)، عندما يتكلَّم عن لوقا. ثالثًا: لماذا يقول: «عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله» لأنه إن كان يوحنا التلميذ المحبوب للمسيح، والذي كانت له جرأة عظيمة، واستحق أن يسند رأسه على صدر الرب، والذي استقى مِنْ ينابيع الروح القدس، لم يجروء أن يقول هذا، لكنه تكلَّم بتأكيد شديد حتى إنه قال: «وأشياء أُخَر كثيرة صنعها يسوع إن كُتبت واحدة واحدة فلست

أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة» (يو٢١: ٢٥). فكيف تجرَّأ لوقا على أن يقول: «الكلام الأول الذي أنشأته يا ثاؤفيلس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله؟» هل يبدو لنا أن هذا الموضوع بسيطًا؟

وفي إنجيل لوقا يقول: «أيها العزيز ثاؤفيلس» (لو١: ٣)، مادحًا الاسم. لأن هذا لم يُقال ولا حتى للقديسين. وهذا أيضًا برهن عليه جزئيًا، أي أنه ولا حتى حرف يوتا (I) ولا فَصله يمكن أن توجد صدفة في الكتب المقدسة. إذن، إن كان في افتتاحية السفر (سفر الأعمال)، توجد عدة موضوعات، فكم مِنْ الوقت سنستغرق لنفحص كل الموضوعات اللاحقة؟ ولهذا اضطررت أن آتي إلى بولس، بعدما تجاوزت المسائل الأولى (في السفر). إذن لأي سبب تكلّمنا عن المشاكل دون أن نقدم الحل لها؟ لكي نعوّدكم على ألاَّ تقبلوا دومًا الطعام المجهَّز، بل في مواضع عدة، أن تعطوا أنتم مِنْ أنفسكم الحل والمعاني المقصودة، الأمر الذي يفعله الحمام.

لأن الحمام يطعم صغاره في الفم، طوال الوقت التي يبقى فيه في عشه. لكن عندما يتمكن مِنْ اخراجها مِنْ العش، ويرى أن أجنحتها قد تشددت، لا يعود يطعمها في الفم، بل يُحضر البذور في أفواهها ويظهرونها، وعندما تأتي الصغار التي تنتظر الطعام بالقرب منها، فإن الأمهات تترك البذور في الأرض، ويحثوهم على أن يلتقطونها بأنفسهم. هكذا نصنع نحن أيضًا، نأخذ الطعام الروحي في الفم، ودعوناكم لكي يظهر لكم الحل كما هو معتاد. لكن لأنكم أتيتم وانتظرتم أن تأخذوا، تركناكم، حتى يمكنكم أن تفهموا المعاني بأنفسكم.

ولهذا تركنا افتتاحية السفر، وأسرعنا إلى بولس. وسنتكلَّم ليس فقط عن كل ما أفاد الكنيسة، بل وكل ما تسبب في تأخر الكنيسة، لأن هذه العظة هى ضروريّة جدًا بالنسبة لنا. سنتكلَّم عن كيف حارب بولسُ المسيحَ؟ كيف اضطهد الرسل؟ كيف كانت لديه معتقدات الأعداء (اليهود)؟ كيف أزعج الكنيسة أكثر مِنْ الجميع؟ لكن لا يجب أن يستحي أحد مِنْ بولس، عندما يسمع كل هذا. لأن هذه ليست اتهامات، لكنها أسسًا للمديح. فكون أن بولس

كان سيئًا مِنْ قبل ثم أصبح صالحًا، فهذا لا يُعد إتهامًا يوجَّه ضده. أما الإتهام هو أن يكون صالحًا، ثم يتجه بعد ذلك إلى ممارسة الشر، لأن الأمور تُقيَّم دائمًا في نهايتها. فإن ربّان السفينة، وإن كان قد جاز حالات غرق كثيرة، إلاَّ أنه حين يعقد النية في الإبحار بسفينة مملؤة بأحمال ثقيلة، فإننا نتهمه بعدم الخبرة في القيادة لو لم يحسن التصرف في قيادته، لأن النهاية هى التي تُغطي على ما يحدث في البدايات. والرياضيون أيضًا لا نحرمهم مِنْ الإشادة والمدح كثيرًا، إذا ما فازوا في المباراة النهائية، حتى ولو كانوا قد هُزِموا مِنْ قبل.

الثعلب صار راعيًا:

هكذا فلنفعل تجاه بولس. لأن ذاك قد غرق مرات عديدة، لكن عندما نوى أن يبحر، قَادَ السفينة سالمة وهى مُحملة بأحمال ثقيلة. ومِنْ ناحية أخرى، فإن يهوذا قد أصبح خائنًا ولم ينتفع مِنْ الماضي على الرغم مِنْ كونه تلميذًا، أما بولس فلم يُعاني شيئًا مِنْ الماضي، برغم أنه كان مُضطهِدًا، طالما أنه قد صار مُبشرًا. وفي هذا كله مدحٌ لبولس، لا لأنه هدم الكنيسة، بل لأن هو نفسه قد بناها أيضًا. لا لأنه حارب البشارة، بل لأنه بعدما حاربها، هو نفسه قد كثف البشارة. لا لأنه اضطهد الرسل، وشتَّت الرعية، بل لأنه بعدما شتَّتها، هو نفسه لمَّ شملها.

٥. هل هناك ما هو أكثر غرابة مِنْ هذا الأمر؟ الثعلب صار راعيًا. ذاك الذي شرب دم الخراف، لم يتوقف عن أن يسفك دمه مِنْ أجل الخراف. أتريد أن تعرف كيف شرب دم الخراف وكيف أن لسانه صار لون الدم؟ «وأما شاول فكان لم يزل ينفث تهددًا وقتلاً على تلاميذ الرب» (أع٩: ١). لكن ذاك الذي كان ينفث تهددًا وقتلاً، وسفك دم المؤمنين، اسمع كيف أنه سفك دمه مِنْ أجل المؤمنين «أنا كنت كإنسان حاربت وحوش في أفسس» (١كو١٥: ٣٢)، وأيضًا يقول: «أموت كل يوم» (١كو١٥: ٣١)، وأيضًا: «قد حُسِبنا مثل غنم للذبح» (رو٨: ٣٦). وهذه كلها قد قالها ذاك الذي كان حاضرًا حين سُفك دم

اسطفانوس وكان راضيًا بقتله[٢]. أرأيت كيف أن الثعلب قد صار راعيًا؟ إذن لا تجزعوا عندما تسمعوا أنه كان مِنْ قبل مُضطهِدًا، ومُجدفًا، ومُهينًا.

أرأيتم كيف أن إتهامه السابق، قد جعل مدحه أعظم؟ ألم أقل لكم في اجتماعنا السابق أن المعجزات بعد الصلب، صارت أعظم مِنْ المعجزات قبل الصلب؟ ألم أُبيِّن لكم هذا بواسطة المعجزات، ومِنْ خلال محبة التلاميذ، وكيف أنه قبل الصلب، قد أمر المسيح فأقام الأموات، أما بعد الصلب فظلال عبيده أقامت أمواتًا؟ وكانت المعجزات تحدث قبل الصلب بأمر مِنْ الرب، ثم بعد ذلك كان عبيده يصنعون معجزات أعظم بمجرد أن ينطقوا باسم الرب؟ ألم أحدِّثكم عن أعدائه، كيف أنه هزَّ ضميرهم؟ كيف أنه انتصر على كل المسكونة؟ وكيف أنّ المعجزات بعد صلبه كانت أعظم مِنْ المعجزات قبل صليبه؟ عظة اليوم هى قريبة مِنْ تلك العظة.

قوة المسيح وتغيير بولس:

وماذا يمكن أن يوجد أعظم مِنْ مُعجزة تحوّل بولس؟ لأنه في فترة حياة المسيح على الأرض، أنكره بطرس، وبعدما جاز الموت، آمن به بولس. وكون أنه قد جذب وأسرَ فكر بولس إليه، فهذا ما يُعدُّ معجزة أعظم مِنْ أن تُقيم أمواتًا بظلال الرسل. لأن الطبيعة هنا (أي طبيعة الرسل وطبيعة النفس) قد استجابت لِمَنْ أصدر الأمر. أما في معجزة بولس فكان الأمر يتوقف على إرادة بولس إما أن يقتنع أو لا. هكذا تتضح القوة الجبارة لذاك الذي أقنعه. لأن تُغيِّر رغبة شخص، تعد أعظم بكثير مِنْ أن تُغيِّر أو تُصحِّح الطبيعة. وبناءً على ذلك، فإن قبول بولس للمسيح بعد صلبه ودفنه، فهذا ما يُعتبر أعظم بكثير مِنْ المعجزات كافة. ولهذا تركه المسيح لكي يُظْهِر كل كره، ثم بعد ذلك دعاه، لكي يجعل دليل على القيامة، وتعليم كرازته، قويًّا ولا يقبل الشك.

ربما يشك البعض في استفادة بطرس مِنْ تعاليم المسيح، هكذا يمكن لشخص سَفِيه أن يقول شيئًا مثل هذا. وقد قلت سَفِيه، لأنه كان هناك أيضًا

---

[٢] انظر أع٧: ٦٠.

بالنسبة لبطرس دليلاً واضحًا جدًا. مِنْ المؤكد أن بطرس أنكر المسيح قبلاً، وأنكره بقسمٍ، ولكنه اعترف به بعد ذلك، بل وقدم نفسه مِنْ أجله. فإن لم يكن ذاك الذي رفضه عندما كان حيًّا قد قام، ما كان له أن يصبر على ميتات كثيرة، حتى إنه لم ينكره عندما أتت لحظة انتقاله مِنْ هذا العالم. ولهذا كان دليل القيامة واضحًا في بطرس. ولكن كان يمكن للسفهاء أن يقولوا أن بطرس بشَّر بقيامة المسيح، لأنه جلس معه على المائدة، وكان بالقرب منه ثلاث سنوات، ولأنه سمع تعاليمه، ولكن عندما نرى بولس الذي لم يعرف المسيح، ولم يسمعه، ولم يشارك في سماع تعاليمه، والذي حاربه بعد صلبه، وقتل الذين آمنوا باسمه، وأثار قلقًا واضطرابًا في كل شيء، عندما تراه يتغيَّر فجأة ويجوز الآلام مِنْ أجل تبشير كل أحباء المسيح، أخبرني أي تبريرًا سفيهًا ستسوقه بعد ذلك، عندما لا تؤمن ببشارة القيامة؟

إذن، إن لم يكن المسيح قد قام، فمَنْ جذب وقرَّب إليه ذاك الذي كان قاسيًا ومتوحشًا إلى أبعد حد، ذاك الذي حارب المسيح بكل ما أوتي مِنْ قوة، وكان مفترسًا بشكل بشع؟ أخبرني، إذن، أيها اليهودي مَنْ اقنع بولس أن يأتي إلى المسيح؟ هل يعقوب؟ هل يوحنا؟ إن كل هؤلاء كانوا يخافونه، ويرتعدون منه، وليس مِنْ قبل فقط، بل وعندما صار صديقًا لهم، عندما أخذه برنابا مِنْ يده وأحضره إلى أورشليم، خافوا أيضًا أن يقتربوا منه. مِنْ المؤكد أن حربه ضد المسيحيين كانت قد توقفت، إلاّ أنّ الخوف ظلّ عند الرُسُل. إذن فالذين تصالحوا معه، كانوا لا يزالون بعد يخافونه، وعندما كان عدوًّا ومقاومًا، هل كانوا سيجرأوا على إقناعه؟ وعندما تحوَّل بشكل نهائي، هل احتملوا أن يواجهوه، أو أن يفتحوا أفواههم، أو أن يظهروا أمامه؟

لم يكن ما حدث هو محاولة إنسانية، لكنه عمل النعمة الإلهية. إذن لو أن المسيح قد مات ولم يَقُم كما تقولون، وأنّ تلاميذه قد أتوا سرقوه، فكيف حدثت معجزات أعظم بعد الصلب؟ كيف أصبحت البراهين على قوّته أكثر؟ إنّه ليس فقط عدوًّا وقائد حرب ضدّكم، على الرغم مِنْ أنه لو كان قد قبض على العدو والمحارب وأخذه أسيرًا لكان هذا دليلاً على عظم قوته. لكنه الآن

لم يصنع هذا فقط، بل صنع أكثر بكثير. لأن الله لم يُغيِّره فقط، بل قد جعله له بالكامل، أحضره إلى جوار محبّته كليّةً، حتى استأمنه على كل أمور الكنيسة. لأن الرب قال: «لأن هذا إناء مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك» (أع٩: ١٥)، وأن يقتنع أكثر مِنْ جميع الرسل أن يتعب مِنْ أجل الكنيسة، التي حاربها هو نفسه في السابق.

٦. أتريد أن تعرف كيف غيَّره؟ كيف جعله له؟ كيف جذبه؟ كيف اعتبره مِنْ أحبائه المقربين؟ لم يستأمن إنسانًا آخر لكي يُطلعه على أسراره، كما فعل مع بولس. ومِنْ أين يتضح هذا؟ يقول: «سمعت كلمات لا يُعبَّر عنها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلَّم بها» (٢كو١٢: ٤). أرأيت مقدار المحبة التي أظهرها العدو والمحارب؟ ولهذا مِنْ الضروري أن نتكلَّم عن حياته السابقة، لأنه حقًا قد أظهر لنا محبة الله وقوته للبشر. محبته للبشر لأنه أراد أن يُخلّص ذاك الذي صنع كل هذه الشرور، وجذبه إليه، أمّا عن القوّة، لأنه عندما أراد أن يُغيِّره، حقّق ما أراد. هذا ما يُظهره بولس نفسه، أنه لم يصنع شيئًا حبًا منه للمخالفين، ولا بنية سيئة مثل بعض الناس؛ مثل اليهود، ولكنه سَلَكَ بغيرة شديدة، وإن كان سلوكه غير سليمًا، وعلى أية حال فقد سَلَكَ بغيرة لله. هذا ما صرخ به هو نفسه قائلاً: «فعلت بجهل في عدم إيمان» (١تيم١: ١٣). ومفتخرًا بمحبة الله للبشر قائلاً: «ليُظهر يسوع المسيح فيَّ أنا أولاً كل أناة مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية» (١تيم١: ١٦). وفي موضع آخر يقول: «وما هى عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين» (أف١: ١٩).

تحوّل بولس برهان على محبة الله للبشر:

أرأيت كيف أن حياة بولس السابقة برهنت على قوة الله ومحبّته للبشر؟ هذا إذن قد حمله كدليل، عندما كتب لأهل غلاطية مِنْ جهة إنه لم يتغيَّر إرضاءً للبشر، لكنه تحوَّل بقوة إلهية: «فلو كنت أرضي الناس لم أكن عبدًا للمسيح» (غل١: ١٠)، ومِنْ أين يتضح أنه قد تحوّل للكرازة ليس إرضاءً للناس؟ «سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية إني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها» (غل١: ١٣). فلم يكن له أن يتحوَّل إلى الإيمان، لو أنه أراد أن يُرضي

الناس. لماذا؟ لأن اليهود كانوا يقدِّرونه، وكان يشعر بأمان كبير، ونال كرامة متميزة. فما كان عليه أن يتقدم في حياة الرسل المملؤة بالمخاطر، والتي كانت لها سمعه غير طيبة، وكانت مملؤة بالآلام. وبناءً عليه فإن هذا التغيُّر، والتحوّل الذي حدث فجأة، وكون أنه هجر الكرامة التي كانت له مِنْ اليهود، والحياة المستقرة، واستبدلها بحياة الرسل التي كانت تجتاز ميتات كثيرة، لهو خير دليل على أن بولس لم يتغيَّر انطلاقًا من عامل أو مبرِّر إنساني.

ولهذا، فنحن أيضًا أردنا أن نستعرض حياة بولس السابقة وأن نُبيّن غيرته القوية الملتهبة ضد الكنيسة، حتى عندما ترى رغبته القوية نحو الكنيسة، تفتخر بالله الذي فعل كل شيء وحوّله. ولهذا فإن تلميذ بولس، قد قصَّ لنا الأمور السابقة بالتفصيل وبتشديد كبير، قائلاً: «أما شاول فكان لم يزل ينفث تهددًا وقتلاً على تلاميذ الرب». وأردت أنا نفسي أن أبدأ مِنْ افتتاحية السفر، وأن أتكلَّم عن بداية القصة، ولكنني رأيت أنه مِنْ الاسم فقط تخرج معاني كثيرة، لأنني فهمت كم مِنْ المشاكل يضع أمامنا هذا (شاول)، لأنني أرى في رسائله أنه يوجد اسم آخر: «بولس عبد ليسوع المسيح، بولس، ها أنا بولس أقول لكم»[٣]. الآن يُقال له بولس، وفي كل مكان هو بولس، وليس شاول.

لأي سبب دُعي مِنْ قبل شاول وفيما بعد بولس؟ الموضوع ليس على هذه الدرجة مِنْ البساطة. لأن بطرس قَبِلَ على الفور تغيير اسمه، فكان قبلاً يُدعى سمعان، ثم بعد ذلك دُعي كيفا. وابنيِّ زبدي؛ يعقوب ويوحنا، كانا قد دُعيا ابنيِّ الرعد. وليس فقط في العهد الجديد، بل في العهد القديم أيضًا نجد أن إبراهيم، كان يُدعى أبرام، ويعقوب كان يُدعى في البداية باسمه، وفيما بعد إسرائيل. وسارة كانت تُدعى ساراي وفيما بعد سارة. إذن، فتغيير الاسماء يعطينا فرصة كبيرة لبحث كبير، وأخشى أن تغرق كلمة التعليم عندما نفتح كثير مِنْ أنهار البحث. لأنه كما يحدث أن يخرج ماء مِنْ كل ناحية عندما يُحفر موضعًا رطبًا، هكذا أيضًا حقل الكتب المقدسة، فحينما تفتح موضعًا

[٣] انظر: رو١: ١، ١كو١: ١، غل٥: ٢.

(للتفسير)، سترى أن أنهارًا كثيرة تبدأ في التدفق وإذا لم نوقفها اليوم، فسنُحاط بحيّة ضخمة.

ولهذا تحديدًا فبعدما نسد مجرى مائنا، سأحيل محبتكم إلى مصدر الماء الذي يتمثل في هؤلاء الأساقفة والمعلّمين، هذا المصدر النقي، والصالح للشرب، والمُبهج، والذي تخرج فيه ماء مِنْ الصخرة الروحية. فلنُعِدَ أنفسنا لكي نستقبل التعليم، وأن نستقي الماء الروحي، حتى يصير داخلنا مصدر ينبع منه ماء لنربح الحياة الأبدية. ليتنا جميعًا نربح هذه الحياة بالنعمة ومحبة البشر اللواتي لربنا يسوع المسيح الذي يليق به مع الآب والروح المحييّ المجد والكرامة والقوة الآن وكل أوان والى دهر الدهور. آمين.